اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الرابعة)

عنوان المحاضرة : التجديد في اغراض الشعر العباسي.

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة الرابعة

التجديد فى الموضوعات القديمة

التجديد في المديح:

وأول موضوع نقف عنده المديح، ومعروف أن الشاعر الجاهلى والإسلامى كان يرسم فى ممدوحه. المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة، وإذا كان مؤثرا فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو واليا عرض لأعماله، وللأحداث التى شارك فيها. أما إذا كان بطلا يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية. وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة فى العصر العباسى، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صورا حية ناطقة، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة فى السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيما قويّا، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء. وبذلك ظلت المدحة تبث فى الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة. والذى لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها فى النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة. وقد مضى الشعراء فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها، وبذلك كانوا صوتّا قويّا لها، صوتا ما بنى يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى مطلع قصيدة للمهدى (١):

أحيا أمير المؤمنين محمد ...سنن النبىّ: حرامها وحلالها

وفيه يقول الحسين بن مطير (٢):

يعفّ ويستحيى إذا كان خاليا ...كما عفّ واستحيا بحيث رقيب

ويقول أبو العتاهية فى هرون الرشيد (٣):

وراع يراعى الله فى حفظ أمّة ...يدافع عنها الشرّ غير رقود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها ...مفارقة ليست بدار خلود

ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحا فحسب بل أصبحت أيضا تاريخا، وهو تاريخ كتب شعرا، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية. وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات، ورسموها حقّا رسما باهرا سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه .

صاغك الله أبا دلف ...صيغة فى الخلق فى خيره

كلّ من فى الأرض من عرب ...بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة ...يكتسيها يوم مفتخره

وكانت المدحة قديما تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتا ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد، وكثيرا ما يضمنها بجانب ذلك حكما توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة.

الاطلال:

وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية، غير أنهم اتخذوها رمزا، أما الأطلال فلحبهم الداثر، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فى الحياة، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق فى أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد :

هلا بكيت ظعائنا وحمولا ...ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

فإذا زجرت القلب زاد وجيبه ...وإذا حبست الدمع زاد هموﻻ (٦)

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله (٢):

قصر عليه تحيّة وسلام ...نشرت عليه جمالها الأيام

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقدا، على شاكلة قول مسلم (٣):

التجديد في الهجاء :

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها فى المديح الخالص، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالا لعله أدق من اتصال المديح، وهى حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن فى العصر الأموى، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسرابا قليلة كانت تظهر من حين إلى حين. ولكن إذا كان هذا الفن ضعف، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يريشونه سهاما مصمية.

ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلاّ صوروها، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحيانا عن هجاء الخلفاء والوزراء، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل. وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوى الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد. وقد تبارى الشعراء فى رسم معانيه، تارة يخزون وخز الإبر، وتارة يطعنون طعنات قاتلة، من ذلك قول بشار فى هجاء ابن قزعة بشحّه (١) فلا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ...مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته للعرف أغلق بابه ...فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقول أبى تمام مصورا غيرة شخص لا فى موضع الغيرة من نسائه، وإنما فى الغيرة على طعامه ورغفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه، بل لكأنه فتك به أشد الفتك، يقول (٢):

صدّق أليّته إن قال مجتهدا ...لا والرغيف، فذاك البر من قسمه (٣)

قد كان يعجبنى لو أنّ غيرته ...على جراذقه كانت على حرمه (٤)

إن رمت قتلته فافتك بخبزته ...فإنّ موقعها من لحمه ودمه

التجديد في الفخر:

وظلت للفخر حيويته القديمة، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلى، على أن أسرابا بقيت منه عند نفر من الشعراء، وفى مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بنى سعد العشيرة القحطانيين وينظم فى ذلك أشعارا كثيرة، ومثله كان دعبل، وقد رد على مذهبّة الكميت التى تشيّع فيها للنزاريين على القحطانيين ردّا عنيفا، مما جعل أبا سعد المخزومى يهاجيه طويلا (٢). وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به فى معركة حامية من معارك الهجاء القبلى، ولكن مسلما أخرسه (٣). وكان بشار يتعصب فى عصر بنى أميّة لمواليه القيسيين تعصبا حادّا، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب، وأخذ يعنف بهم عنفا شديدا، مصورا البغض الذى كان يحرق كبده. والجديد حقّا فى الفخر لهذا العصر أن كثيرا من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلّم الخزاعى (٤):

وإنى لذو حلم على أن سورتى ...إذا هزّنى قوم حميت بها عرضى (٥)

وإنى لأجزى بالكرامة أهلها ...وبالحقد حقدا فى الشدائد والخفض

وقول بكر بن النطّاح (٦):

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ...ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت ...فتاة بعقد أو سخاب قرنفل (٧)

التجديد في الرثاء:

ونشط الشعراء فى الرثاء نشاطا واسعا، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبّنوه تأبينا رائعا، وقد صوّروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا. وحقّا رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيدا يضرم الحمية فى نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت، دفاعا يقوم على البأس والبسالة والاستطالة. وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعا فى بعض الميادين، حينئذ ينظم فيه الشعراء مراثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة فى القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبّا عن حرمات الوطن، ومن خير ما يمثل ذلك مراثى أبى تمام فى محمد بن حميد الطوسى الطائى، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعا ورعبا، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميد فى مضيق حرج، والتف به جنود بابك، فظل قائما يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق

السلاح، بل قاتل حتى قتل عزيزا كريما. وحزنت الأمة حزنا عميقا لموته، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعة تصور جلده فى القتال وصبره فى النضال حتى الموت الزؤام، على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية، التى استهلها استهلالا بديعا بقوله (١):

أصمّ بك النّاعى وإن كان أسمعا ...وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا (٢)

وفيها يقول:

فتى كلما ارتاد الشجاع من الرّدى ...مفرّا غداة المأزق ارتاد مصرعا (٣)

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى ...فخانك حتى لم تجد فيه منزعا (٤)

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة ...فقطّعها ثم انثنى فتقطّعا

رثاء الاصدقاء:

وشاع فى العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء، بكاء يفجر الحزن فى النفس، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة، من مثل قول بشار فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة (١):

اشرب على تلف الأحبّة إننا ...جزر المنية ظاعنين وخفّضا (٢)

ويلى عليه وويلتى من بينه ...كان المحبّ وكنت حبّا فانقضى

قد ذقت ألفته وذقت فراقه ...فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا (٣)

رثاء الابناء:

وقاسمنى دهرى بنىّ بشطره ...فلما تقضّى شطره عاث فى شطرى (٥)

ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ...سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى

وكنت به أكنى فأصبحت كلما ...كنيت به فاضت دموعى على نحرى

بكاء الزوجة:

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه ...بعيد الكرى عيناه تبتدران

التجديد في الغزل :

ولعل الشاعر العباسى لم يعن بموضوع قديم كما عنى بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التى كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدان والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين. وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا فى الفصل الثانى، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر، وبادلته حبّا بحب وهياما بهيام. وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به، وكان منهن كثيرات يحسنّ نظم الشعر، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة، على نحو ما صوّرنا من ذلك فى غير هذا الموضع.

الغزل العفيف :

دعا بفراق من تهوى أبان ...ففاض الدّمع واحترق الجنان

كأن شرارة وقعت بقلبى ...لها فى مقلتى ودمى استنان (٢)

إذا أنشدت أو نسمت عليها ...رياح الصّيف هاج لها دخان

الغزل الماجن :

اخلع عذارك فى الهوى ...واشرب معتّقة الدّنان

وصل القبيح مجاهرا ...فالعيش فى وصل القيان

لا يلهينّك غير ما ...تهوى فإن العمر فان

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها فى عهد الأمين، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفا للخمور والمجون، واتخذ أبا نواس نديمه، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفا يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالبا إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة، صائحا بذلك صياحا كثيرا من مثل قوله (٢):

قل لمن يبكى على رسم درس ...واقفا ما ضرّ لو كان جلس (٣)

تصف الرّبع ومن كان به ...مثل سلمى ولبينى وخنس

التجديد في الزهد :

قد انتشر فى العصر شعر الزهد، وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون، فإنها لم تكن تعرف ترفا ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع فى بعض جوانبها النسك والعبادة وإما أن يقلع إلى حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبى نواس مما جعل ديوانه يشتمل على مثل قوله (٣):

ألا ربّ وجه فى التراب عتيق ...ويا ربّ حسن فى التراب رقيق (٤)

فقل لقريب الدار إنك راحل ...إلى منزل نائى المحل سحيق

وما الناس إلا هالك وابن هالك ...وذو نسب فى الهالكين عريق

إذا امتحن الدّنيا لبيب تكشّفت ...له عن عدوّ فى ثياب صديق

وإذا كان أبو نواس شغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم، وغيره كثيرون، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله (١):

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ...واقنع بيأس فإن العزّ فى الياس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم ...إن الغنىّ من استغنى عن الناس

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر، إنما يزدهر فى تاليه، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس، وأيضا سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثا أكثر تفصيلا.

موضوعات جديدة:

التنفير من اليأس محمد بن يسير:

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ...إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها ...فالصبر يفتح منها كلّ ما ارتتجا (٣)

بقول حماد عجرد (٣):

الاخلاق المحمودة:

كم من أخ لك لست تنكره ...ما دمت من دنياك فى يسر

متصنّع لك فى مودّته ...يلقاك بالترحيب والبشر

قصر خرب:

ألا يا قصر قصر النّوشجانى ...أرى بك بعد أهلك ما شجانى

فلو أعفى البلاء ديار قوم ...لفضل منهم ولعظم شانى

لما كانت ترى بك بيّنات ...تلوح عليك آثار الزمان

النرجس:

ثلاث عيون من النّرجس ...على قائم أخضر أملس

يذكّرننى طيب ريّا الحبيب ...فيمنعننى لذّة المجلس (٣)

وقد أكثروا من **وصف الأمطار والسحب**، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة. وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها، وكأنها أناسيّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة:

أسعدانى يا نخلتى حلوان ...وابكيالى من ريب هذا الزمان (٥)

واعلما أن ريبه لم يزل يف ...رق بين الألاّف والجيران

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .

- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .